

السلام

المطران إيريناوس (ستينبرج)

مطران لندن وأوروبا الغربية في الكنيسة الروسية خارج روسيا

باسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد آمين.

أيها الإخوة والأخوات الأعزّاء،

أودُّ اليوم أن أتناول مفهومًا آخر في الحياة الروحية له انعكاسٌ على الطريقة التي يسعى فيها كلٌّ واحدٍ منّا ليكون ابنًا لله. وهذا المفهوم هو السلام.

من المؤكّد أنّ مفهوم السلام له أهميّةٌ محوريّةٌ في الوقت الراهن من تاريخنا البشريّ المتصدّع. فنحن نحيا في عصرٍ تزايدت فيه الحروب وسفك الدم إلى درجةٍ لم نألّفها منذ زمن. فيما أسجّلُ هذا الحديث، ثمّة حربٌ ناشبةٌ بين الإخوة الأرثوذكسيّين في أوكرانيا، وأخرى في الأراضي المقدّسة حيث تجسّدَ مخلصنا ومشيّ خلال حياته في الجسد، مع الرسل وحاملات الطيب والكثير من القديسين. وثمّة حروبٌ في مناطق أخرى من العالم، وسفكٌ دمٍ على الكثير من الجبهات. وعندما ننظر إلى ما وراء الحروب وسفك الدماء، نجدُ درجةً من الكراهية والعداوة نادرًا ما شهدناها خلال حياتنا. ثمّة انحطاطٌ أخلاقيّ من النوع الذي لم يكن من الممكن تصوّره لأجيالٍ في المجتمعات المحيطة بنا، الغربية منها والشرقية. يبدو أنّه لا يمكن لأحدٍ في هذا العالم أن يفلت من النزعات الأثيمة في هذه الأيام الأخيرة.

إلّا أنّنا نتعزّى كمسيحيّين، عالمين أنّ هذا بالضبط ما قد سبق الربُّ أن أخبرَ به وحذّرَ منه: أنّنا سنواجه هذه المشقّات قبل أن تحلَّ النهاية. لذلك، إنّنا لا نملُّ من عمل الخير، مثلما أوعزَ إلينا الرسول في الأيام الأولى للكنيسة. لا نخاف ولا نياس عند مواجهة أمورٍ كهذه، بل نسعى لنقتني، في هذه الحياة، سلامَ الله، سلامَ المسيح.

بيد أن السلام هو واحدٌ من تلك المصطلحات التي قد بحثناها في بعض هذه الأحاديث¹، والتي يستخدمها العالم يُيسرٍ مثلما تستخدمها الكنيسة، ولكن بطريقةٍ مختلفةٍ جدًا. لذلك، يقع على عاتق كلِّ واحدٍ منّا، كأبناء للكنيسة، أن نفهم على قدر المستطاع، بمحدوديتنا وصغرنا، ما الذي يعنيه السلام الحقيقي كما حدّده الله لنا في كنيسته. في كلِّ مكانٍ حولنا، يُفهمُ السلام ضمن سياقٍ دهرِيٍّ، على أنه تحرُّرٌ من الصراعات والافتتال، من الكراهية والعداوة. إنّ هذا التحرُّر، بل هذا السلام، في أعماق مستوياته، غير قابلٍ للتحقيق في عالمٍ يتفشى فيه إثم البشر. قد نقع على سيناريوهاتٍ وجوديةٍ سلاميةٍ نوعًا ما، تبقى مدّةً من الزمن. لكن، ما دام الإنسان مستمرًّا في خطيئته، في عطبه، في تمرُّده، فهذه لن تكون سوى درجةٍ مؤقتةٍ وعابرةٍ من زيادةٍ في السلم، دائمًا ما ستُفسح المجال مرّةً أخرى للجشع، والخصومات، والنزاعات، والتنافر، بل وأيضًا لسفك الدم، وبالنتيجة الموت.

هذا هو واقع التمرُّد. هذه هي حقيقة الخطيئة. ولهذا السبب، فعلَ المسيح، منذ بداية الخلق، كلَّ ما يمكن فعله ليمنحنا الفرصة لعدم ارتكاب الخطيئة. ولهذا لدينا في الكنيسة، كما هي اليوم، كامل مجموعة القوانين والعقائد والتعاليم التي تسعى لإبقائنا على طريق عدم الخطيئة، ومنعنا من الانحراف عنها والوقوع في أشراك الإثم. غير أنّنا باستخدامنا السيئ والتمدني للحرية، بدلًا من أن نصبح ما خلقنا الله لنكون عليه، نصبح متمرّدين على ذواتنا، ومرتدين عن الحقّ. وما دام ذلك ما يُحدّد وجودنا، فإنّ السلام، بمفهومه الشائع، يكون مجرد حلمٍ لن يتحقّق مطلقًا.

فيما أقول ذلك، آمل أن يفهم الجميع—وها أنا أقول ذلك بوضوح— أنّي لا أقصد التلميح، ولو لثانيةٍ واحدةٍ، إلى أنه ليس على المسيحيين أن يسعوا بقواهم كلّها إلى تحقيق حالة السلم في وجودنا الأرضي. فحيث يوجد نزاع، علينا أن نبذر بساطة القلب والانفتاح تجاه إخوتنا وأخواتنا. حيث ينشب نزاع، أو يصل إلى مرحلة سفك الدم والحرب، من المؤكّد أنه من واجب كلِّ مسيحيٍّ أن يصلّي ويعمل ويتصرّف ليتوقّف ذلك كلّهُ بسرعةٍ وعجلةٍ؛ وأن يسعى، بكلِّ حياته الداخليّة والخارجيّة، لنجدة أولئك الذين يتألّمون من جرّاء هذه الأحداث؛ وأن يضع حدًّا لها، لكي نحيا في تناغمٍ وانسجامٍ بعضنا مع بعض.

¹ أحاديث المطران إيريناوس على قناة *PatristicNectarFilms* على [YouTube](https://www.youtube.com)

مع ذلك، نقوم بهذا كله عالمين أنّ الضعف البشريّ سيُفْضِي مجدّداً إلى نزاعٍ جديد، إلى فتنةٍ جديدة. إلاّ أنّ هذا لا يُعْفينَا من التصرّف في الوقت الراهن، بل يعطينا منظوراً أوسع للأمر. وفي سياق ذلك المنظور الأوسع، يمكننا أن نبدأ بفهم السلام كما تفهمه الكنيسة، وكما نصليّ من أجله في سياق خدمنا الليتورجيّة. إنّنا نصليّ من أجل السلام بنوعيه كليهما في صلاتنا الليتورجيّة. نصليّ من أجل السلام بمعناه الدنيويّ كاعتناقٍ من النزاعات، لأننا بكلّ تأكيدٍ نتمنّى ونرجو ونصليّ ونعمل على أن تزول الفتن من هذا العالم، لكي نعيش في حرّيّةٍ حقيقيّةٍ من دون عوائق. غير أنّنا نصليّ بالأكثر لأجل سلامٍ يتخطّى هذه الأمور، وهو سلام المسيح، السلام الوحيد الذي يمكنه بالحقيقة أن يبقى وأن يغيّر الإنسانيّة. نصليّ من أجل سلام كلّ العالم، السلام الذي من العلى. هذه هي الطلّبات التي نتلوها في صلواتنا.

إنّ السلام الذي نصليّ من أجله في تلك الصلوات ليس مجرد غيابٍ للنزاعات، بل طاعة تامّة لمشيئة الله. فهذا هو المجال الوحيد والوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها، في الحقيقة، القضاء على نحوٍ كاملٍ على مكامن الارتداد والكرهية وسفك الدماء، وليس فقط قمع تلك المكامن السامّة المتمرّدة لبرهةٍ قصيرة. هذه أمراضٌ دخلت حياتنا بسبب سوء استخدامنا لإرادتنا، الأمر الذي ينتشر على نحوٍ جنونيّ في مجتمعنا وفي وجودنا نحن الجنس البشريّ. وعندما نصليّ أن يحلّ سلام المسيح في ظلّ ذلك، فإننا نصليّ أن يُظهِرَ الربُّ فينا، ومن خلالنا، اتّباعاً كاملاً لمقاصده تجاه الخليقة، لا لمقاصدنا نحن، وطاعة تامّة لمشيئته التي تخصّ وجودنا، لا لمشيئتنا الذاتية وإرادتنا الحرّة في تقرير مصيرنا. نصليّ أن تسود شريعته هو، عوضاً عن أحكامنا نحن حول ما هو جيّد وما هو سيّئ، وأن تكون محبّته هي التي تعمل في الخليقة وتحركها وتلهمها، بدلاً من محبّتنا ذات الأوجه الساقطة المتدنّية.

إنّ السلام الحقيقيّ، السلام المسيحيّ، هو الخضوع التامّ والكامل لمشيئة الله. وعندما نصليّ من أجل سلام العالم، في حين أنّنا نصليّ بالفعل لتحقيق السّلم في زمننا الحاضر، وإنهاء النزاعات والكرهية، وما إلى ذلك، فالأهمّ من ذلك بكثير، وما نصليّ من أجله بعمقٍ أكبر، هو أن تُثمر مشيئة الله في خضمّ هذه النزاعات والفتن، وأن تنجلي، وأن تتلقّاها جميع مخلوقاته، وتقبلها وتحيا بموجبها. ففي ظلّ ذلك الواقع وتلك الحالة من الالتصاق بمحبّة الله، يمكن للسلام أن يسود في هذا العالم.

دعونا لا نتوقّف مطلقًا عن العمل لتحقيق ذلك بكلّ قلوبنا. دعونا لا نتوقّف عن الصلاة من أجل ذلك بكلّ حرارة النفس والنية. دعونا لا ننخدع بالنزول إلى مستوى الهدوء العالميّ، بل أن نسعى للوصول إلى ما هو أسمى، إلى أبدية محبة الله المتجلية في هذا العالم الذي صنعّه هو، لكي تسجد أمامه كلُّ ركلة، وليمتلئ كلُّ قلبٍ بمحبّته، ويعترف كلُّ لسانٍ بأنّ يسوع المسيح هو ربُّ لمجد الله الأب. آمين

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Bishop Irenei Steenberg (2024). *Reflections with Bishop Irenei: Peace*. Patristic Nectar Publications. [Youtube](#).